بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة تفريغات البرجس (3)

شَرَفُ العِلم

محاضرة مفرغة لفضيلة الشيخ:

عبد السَّلام بن برجس آل عبد الكريم

-رحمه الله تعالى، وطيب ثراه-

فرَّغها وأعدَّها: مُحمَّد عماد نوفل
عفا الله عنه

WWW.DAAWAH.NET

فَهَذَا وَقْتُ انْقِضَاءِ الدَّوْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي أُقِيمَتْ بِمَدِينَةِ الشَّارِقَةِ ـ حَرَسَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَقَدْ مَرَّ أُسْبُوعَانِ عَاشَ فِيهِمَا طَلَبَةُ الْعِلْمِ وَمَنْ قَامَ بِإِلْقَاءِ الدُّرُوسِ وَقْتًا مُمْتِعًا، يَتَذَاكَرُونَ فِيهِ كِتَابَ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

وَهَذَا الْعُنْوَانُ مِنَ الْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ يُذَكِّرُنَا إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُنَا ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ـ مِنَ الْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ فِي تَحْصِيلِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ـ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ ـ، وَبَذْلِ كُلِّ مَا يَمْلِكُونَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ.

فَسَلَفُنَا ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ـ ضَرَبُوا أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَنُشْدَانِهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ؛ فَصَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهَا، وَجَابِرٌ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ـ قَدْ رَحَلَ شَهْرًا كَامِلًا فِي طَلَبِ حَدِيثٍ وَاحِدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وَهَكَذَا مَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِينَ.

وَبِذَلِكَ حُفِظَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ وَنُقِلَ إِلَى هَذِهِ الْأَجْيَالِ؛ فَالْأَجْيَالُ الْقَادِمَةُ أَمَانَةُ تَوْصِيلِ الْعِلْمِ لَهُمْ مُلْقَاةٌ عَلَى عَاتِقِكُمْ أَنْتُمْ؛ فَابْذُلُوا الْجِدَّ وَالاجْتِهَادَ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ النَّافِعِ وَالاسْتِفَادَةِ مِنْ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا التَّقْصِيرَ سَوْفَ يَعُودُ سُوءًا عَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ، مِنْ أَبْنَائِكُمْ، وَمِنْ إِخْوَانِكُمْ، وَمِنْ أَحْفَادِكُمْ.. وَهَلُمَّ جَرًّا.

فَالاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ هُوَ عَلَامَةُ الْمُوَفَّقِ، عَلَامَةُ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ بِهِ خَيْرًا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»؛ فَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ مَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَنَالُهَا إِلَّا خُلَّصُ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَلِهَذَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَرْفَعُهُمْ دَرَجَاتٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَرْفَعُهُمْ دَرَجَاتٍ عَالِيَةً فِي الْأُخْرَى، كَيْفَ لَا وَهُمُ الْقَائِمُونَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ؛ يَحْفَظُونَهَا، وَيُبَلِّغُونَهَا إِلَى النَّاسِ صَافِيَةً كَمَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ؟!

فَلِذَا؛ هُمُ الْعُدُولُ، هُمُ الْأَثْبَاتُ، هُمُ الْأَخْيَارُ، هُمْ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَبَعْدَ صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ؛ كَمَا جَاءَ الْحَدِيثُ فِي ذَلِكَ عَنْهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»؛ فَأَيُّنَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَلْتَحِقَ بِرَكْبِ هَؤُلَاءِ؟!

لَا رَيْبَ أَنَّ الْجَمِيعَ يَتَمَنَّى ذَلِكَ وَيَتَطَلَّعُ فِيهِ.

أَلَا وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ هَمُّهُمْ وَمُرَادُهُمْ تَحْصِيلُ الدُّنْيَا؛ فَلَا تَدُورُ أَحْلَامُهُمْ وَأَمَانِيُّهُمْ إِلَّا فِي فَلَكِهَا؛ فَيَنَامُونَ وَهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي جَمْعِهَا وَفِي التَّبَاهِي بِهَا؛ فَيَسْتَيْقِظُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ.

أَمَّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ بِهِ خَيْرًا؛ فَهِمَّتُهُ أُخْرَى، هِمَّتُهُ أَعْلَى؛ كَمَا قَالَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «مَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ هَمُّهُ؛ جَمَعَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا هَمُّهُ؛ فَرَّقَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ فِي قَلْبِهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ لَهُ».

وَمِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعِلْمِ أَحَدًا مَقْصُورًا بِعَيْنِهِ مِنَ الْأُمَّةِ؛ فَلَيْسَ هُوَ فِي قَبِيلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَهْلِ الْأَمْوَالِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَهْلِ الْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الحديد: ٢١، الجمعة: ٤].

وَهَذَا لِأَجْلِ أَنْ يَتَسَابَقَ النَّاسُ وَأَنْ يَتَسَارَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْ نُورِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ؛ حَتَّى يَكُونُوا نُجُومًا يُهْتَدَى بِهَا، وَحَتَّى يَكُونُوا أَنْوَارًا يُسْتَضَاءُ بِهَا.

وَفِي ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ الْمَنْزِلَةَ فِي شَرْعِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَيْسَتْ إِلَّا لِأَهْلِ التَّقْوَى، الَّذِينَ بَذَلُوا الْجُهْدَ وَأَتْعَبُوا النَّفْسَ فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ؛ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْأَكْرَمُونَ، هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُقَدَّمُونَ، هَؤُلَاءِ هُمْ تَاجُ الْأُمَّةِ وَضَوْؤُهُ، وَخَيْرُهَا وَبَرَكَتُهَا.

سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ ذَوِي النَّسَبِ الْعَالِي أَوْ غَيْرِهِ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْعَرَبِ أَوْ مِنَ الْعَجَمِ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْبِيضِ أَوْ مِنَ السُّودِ، الْكُلُّ يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ؛ فَلَا يُرْفَعُ إِلَّا بِعَمَلِهِ. وَلِهَذَا؛ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ مَا يَجْلِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي حَالِ حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ؛ فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ، لِيَلْزَمِ الْعِلْمَ، فَإِنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الْعِلْمَ؛ فَهُوَ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَنَلِ الْعِلْمَ؛ فَهُوَ بِسَيْرِهِ فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ قَدْ كُتِبَ مِنَ الْمُشَارِكِينَ لِلْعُلَمَاءِ فِي أُجُورِهِمْ وَثَوَابِهِمْ؛ فَإِنَّ الْعَالِمَ وَالْمُتَعَلِّمَ شَرِيكَانِ؛ كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْآثَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَعَنْ صَحَابَتِهِ.

وَإِنَّ الْأُمَّةَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ لَتَتَشَوَّقُ كَثِيرًا إِلَى أَبْنَائِهَا؛ لَعَلَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَحْمِلُ شَرَفَ هَذَا الْعِلْمِ، وَمَنْ يَقُومُ بِهِ ـ كَمَا قَامَ بِهِ الْأَسْلَافُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ـ عَلَى عِلْمٍ وَاسِعٍ، وَعَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، وَعَلَى قَدْرٍ عَظِيمٍ مِنْ بَثِّ الْعِلْمِ، وَنَشْرِ الْهُدَى، وَإِصْلَاحِ أَحْوَالِ النَّاسِ، وَمُجَاهَدَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ مِمَّنْ يُرِيدُونَ أَنْ يُضِلُّوا النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبِغَيْرِ هُدًى.

فَلَا يَدْخُلُ النَّقْصُ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا حِينَمَا يَضْعُفُ الْعِلْمُ فِيهَا وَيَقِلُّ الْعُلَمَاءُ.

وَلِهَذَا؛ أَخْبَرَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ أَنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ قَبْضَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ قَبْضَ الْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى انْتِشَارِ الْجَهْلِ، وَانْتِشَارُ الْجَهْلِ دَلِيلٌ عَلَى سُوءِ أَحْوَالِ النَّاسِ.

وَمِنْ هُنَا؛ كَانَتِ السَّاعَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ؛ لِعَدَمِ مَنْ يُنَبِّهُهُمْ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ، لِعَدَمِ مَنْ يُبَصِّرُهُمْ بِالْهُدَى الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ.

وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ فِي قَوْلِهِ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ؛ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا؛ فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا».

إِنَّهَا الْمُصِيبَةُ السَّاحِقَةُ لِلْأُمَّةِ، إِنَّهَا الطَّامَةُ الْكُبْرَى الَّتِي تَعْصِفُ بِالْأُمَّةِ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْهَلَاكِ؛ إِنَّهَا فَقْدُ الْعُلَمَاءِ، إِنَّهَا خُلُوُّ الْأَرْضِ مِنَ الْقَائِمِ لِلَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِالْحُجَّةِ.

وَإِنَّمَا يُوجَدُ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، عِنْدَئِذٍ تَسْتَحْكِمُ الْأَهْوَاءُ، وَتَكْثُرُ الشُّرُورُ، وَيَنْتَشِرُ الْبَلَاءُ؛ فَعِنْدَمَا تَسْتَمِدُ الْأُمَّةُ أَحْكَامَ شَرِيعَةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُهَنْدِسٌ مُقَاوِلٌ، وَعِنْدَمَا تَسْتَمِدُّ الْأُمَّةُ الْعِلْمَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ وَهُوَ صَيْدَلَانِيٌّ... وَهَكَذَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ عَلَامَةُ خَسَارَتِهَا، وَعَلَامَةُ شَقَائِهَا، وَعَلَامَةُ بَلَائِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ؛ فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ عَمَّنْ يَأْخُذُ هَذَا الدِّينَ، فَلَا يَأْخُذُهُ عَنْ كُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَرَجَ؛ وَإِنَّمَا يَأْخُذُهُ مِنْ أَهْلِهِ ـ مِنْ حَمَلَتِهِ ـ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ وَنَعَتَهُمْ بِمَا هُوَ جَلِيٌّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر: ٢٨]؛ فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أَهْلُ الْخَشْيَةِ، وَأَهْلُ الرُّسُوخِ فِي دِينِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ. وَلِهَذَا؛ اسْتَشْهَدَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ بِهِمْ عَلَى أَجَلِّ مَشْهُودٍ بِهِ، وَعَلَى أَعْظَمِ قَضِيَّةٍ فِي الْوُجُودِ؛ وَهِيَ وَحْدَانِيَّتُهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: ١٨]؛ فَاسْتِشْهَادُ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَبِأُولِي الْعِلْمِ مِنْ خَلْقِهِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمُ الثِّقَاتُ الْعُدُولُ، الَّذِينَ هُمْ مَحَطُّ آمَالِ الْأُمَّةِ، وَمَحَلُّ ثِقَةِ الْأُمَّةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ،

إِنْ شِكَايَةَ الْأُمَّةِ مِنْ قِلَّةِ الْعُلَمَاءِ لَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ غَيْرُ مَوْجُودِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَا يُخْلِي زَمَنًا مِنَ الْأَزْمَانِ مِنْ غَيْرِ قَائِمٍ لِلَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ بِالْحُجَّةِ عَلَى خَلْقِهِ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ إِذَا قَلُّوا وَضَعُفَ صَوْتُهُمْ فَلَمْ يَصِلْ إِلَى النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْبَلَاءَ يَسْتَحْكِمُ، وَإِنَّ الشَّقَاءَ يَقْوَى ـ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ـ.

فَعَلَى هَذَا؛ نَدْعُو جَمِيعَ شَبَابِنَا، وَنَدْعُو جَمِيعَ الشَّابَّاتِ، نَدْعُو جَمِيعَ الرِّجَالِ وَجَمِيعَ النِّسَاءِ مِمَّنْ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى تَحَمُّلِ الْعِلْمِ وَمَعْرِفَتِهِ أَنْ [يَأْخُذُوا بِهِ؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ] بِحَظٍّ وَافِرٍ؛ لَعَلَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَفْتَحَ قُلُوبَهُمْ، وَأَنْ يَشْرَحَ صُدُورَهُمْ فِي حَمْلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ، وَحَمْلِ هَذَا الْعِبْءِ الْكَبِيرِ؛ فَتَحْتَاجُهُمُ الْأُمَّةُ فِي أَشَدِّ الْأَوْقَاتِ، فَمِنْ ثَمَّ تَجِدُهُمْ أَمَامَهَا؛ تَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ، وَتَنْتَفِعُ بِهِمْ، وَهَكَذَا.

فَالْعِلْمُ يَجِبُ قَدْرٌ مِنْهُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ؛ فَمِنَ الْعِلْمِ مَا هُوَ فَرْضُ عَيْنٍ لَا يَسَعُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَجْهَلَهُ، سَوَاءٌ كَانَ مُتَعَلِّمًا أَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَلِّمًا.

وَمِنَ الْعِلْمِ مَا هُوَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَهُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، إِذَا قَامَ بِهِ مَنْ يَكْفِي؛ سَقَطَ الْإِثْمُ عَنِ الْبَاقِينَ.

فَالْعِلْمُ الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَلِدِينِهِ، وَلِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ لِمَا تَقُومُ بِهِ صَلَاتُهُ مِنَ الْوُضُوءِ، وَمَا تَقُومُ بِهِ صَلَاتُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ أَرْكَانِهَا، وَوَاجِبَاتِهَا، وَشُرُوطِهَا، وَالصَّلَاةِ كَمَا صَلَّى النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ، وَهَكَذَا مَنْ كَانَ لَدَيْهِ مَالٌ يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ أَحْكَامِ الزَّكَاةِ مَا يُخْرِجُ بِهِ الْمَالَ، إِمَّا مَعْرِفَةً بِالتَّفْصِيلِ، وَإِمَّا مَعْرِفَةً بِسُؤَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَهَكَذَا الصَّوْمُ، وَهَكَذَا الْحَجُّ.

فَمَعْرِفَةُ الْأُمُورِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِتَرْكِهَا؛ بَلِ الْجَمِيعُ يَشْتَرِكُونَ فِيهَا.

وَلِهَذَا؛ سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: هَلْ يَجِبُ طَلَبُ الْعِلْمِ؟ قَالَ: «نَعَمْ؛ يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَسَعُهُ جَهْلُهُ»، قِيلَ: مِثْلُ أَيِّ ـ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ـ؟ قَالَ: «مِثْلُ صَلَاتِهِ، وَصِيَامِهِ، وَصَدَقَتِهِ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ».

وَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، وَزِيَادَةُ التَّفَاصِيلِ الشَّرْعِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الْمَبْثُوثَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَفِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُهُ أَخْيَرُ الْأُمَّةِ، وَأَبَرُّ الْأُمَّةِ، وَأَفْضَلُ الْأُمَّةِ، مِنَ الرِّجَالِ أَوِ النِّسَاءِ الَّذِينَ يَنْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَنْفَعُونَ النَّاسَ.

وَلِهَذَا؛ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ».

فَالْعَالِمُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ، وَيَتَمَكَّنُ مِنْهُ، وَيَعْرِفُ تَفَاصِيلَ الشَّرِيعَةِ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَمُنُّ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ عَلَيْهِ بِأَنْ لَا يَكْتُمَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَبِأَنْ لَا يَلْبِسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ؛ بَلْ يَنْشُرُ هَذَا الدِّينَ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ؛ ﴿كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾[آل عمران: ٧٩]، رَبَّانِيِّينَ: تُرَبُّونَ النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَالْأُمَّةُ فِي هَذَا الزَّمَنِ عِنْدَهَا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّحْصِيلِ وَالْعِلْمِ مَا لَمْ يَتَوَفَّرْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقِينَ؛ فَالْقِرَاءَةُ وَالْكِتَابَةُ كَثُرَتْ وَانْتَشَرَتْ؛ فَلَمْ تَكُنْ حَجَرَ عَثْرَةٍ أَمَامَ مَنْ يُرِيدُ الْعِلْمَ؛ فَأَصْبَحَ جُمْهُورُ النَّاسِ يَقْرَؤُونَ وَيَكْتُبُونَ.

وَهَكَذَا وَسَائِلُ نَقْلِ الْعِلْمِ، مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُعَاصِرَةِ الَّتِي قَرَّبَتِ الْبَعِيدَ وَيَسَّرَتِ الْعَسِيرَ، مِنْ هَذِهِ الْأَشْرِطَةِ الَّتِي تَحْفَظُ مَا يُلْقَى فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَعِلْمٍ، وَمِنَ (الْإِنْتَرْنِت) الَّذِي يَحْفَظُ مَا يُلْقَى فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَعِلْمٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْكَثِيرَةِ، كَطِبَاعَةِ الْكُتُبِ وَانْتِشَارِهَا؛ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلُ، بَلْ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَكْتَبَتِهِ سِوَى مُؤَلَّفَاتٍ وَكُتُبٍ مَعْدُودَةٍ عَلَى أَصَابِعِ الْيَدَيْنِ، أَوْ حَتَّى عَلَى أَصَابِعِ الْيَدِ الْوَاحِدَةِ.

وَهُنَا تَحْضُرُنِي كَلِمَةٌ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السِّعْدِيِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ: أَنَّهُ تَمَنَّى أَنْ يَرَى كِتَابَ (الاسْتِقَامَةِ) لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ، فَهَذَا الْعَالِمُ الَّذِي نَفَعَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الْأُمَّةَ بِعِلْمِهِ يَتَمَنَّى أَنْ يَلْقَى هَذَا الْكِتَابَ وَأَنْ يُحَصِّلَهُ، وَمَعَ هَذَا مَاتَ وَلَمْ يَرَهُ، وَهُوَ الْآنَ فِي أَيْدِي وَفِي مُتَنَاوَلِ الْجَمِيعِ بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ وَبِغَيْرِ عَنَاءٍ، وَقِسْ عَلَى هَذَا.

فَالْعُلَمَاءُ السَّابِقُونَ إِذَا أَرَادُوا حَدِيثًا لَيْسَ عِنْدَهُمْ؛ رَحَلُوا إِلَيْهِ مُدَّةَ أُسْبُوعٍ، أَوْ شَهْرٍ، أَوْ شَهْرَيْنِ، أَوْ بَعْضُهُمْ قَدْ يَبْقَى فِي الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِمُدَّةِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، كَمَا جَلَسَ بَعْضُهُمْ ـ كَابْنِ مَنْدَه ـ أَرْبَعِينَ عَامًا فِي الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.

وَزَمَنُنَا الْآنَ هُوَ مُخْتَلِفٌ تَمَامًا عَنْ زَمَنِهِمْ فِي تَيَسُّرِ الْأُمُورِ وَتَوَفُّرِهَا، فَمَا الَّذِي يَنْقُصُنَا حَتَّى وَصَلَ بِنَا الضَّعْفُ فِي الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَى مَا وَصَلَ؟!

قَبْلَ أَنْ نُجِيبَ: هُنَاكَ رِسَالَةٌ لِلْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ الْأَمِيرِ الصَّنْعَانِي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ سَمَّاهَا: (إِرْشَادُ النُّقَّادِ إِلَى تَيْسِيرِ الاجْتِهَادِ)، تَكَلَّمَ فِيهَا عَمَّا سَبَقَ وَأَنْ أَشَرْتُ إِلَيْهِ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ زَمَنِ السَّابِقِينَ وَبَيْنَ الزَّمَنِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ، مِنْ أَنَّ الْكُتُبَ فِي زَمَنِهِ قَدْ تَوَفَّرَتْ وَكَثُرَتْ وَأَصْبَحَ الْحُصُولُ عَلَيْهَا مِنْ أَسْهَلِ مَا يَكُونُ، وَبَيْنَمَا مَنْ سَبَقَ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَلَكِنِ الْفَرْقُ بَيْنَ تَحْصِيلِنَا وَتَحْصِيلِهِمْ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى أُمُورٍ لَمْ يَرْعَهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَكَ طَرِيقَ طَلَبِ الْعِلْمِ.

فَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الطُّرُقِ: تَصْحِيحُ النِّيَّةِ لِلَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ؛ فَإِنَّ هَذَا الْعِلْمَ هُوَ بِيَدِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَهَبَهُ عِلْمًا وَهُدًى؛ يَسَّرَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ لَهُ أَسْبَابَهُ، وَمَنْ لَمْ يَشَأْ ـ تَعَالَى ـ؛ فَإِنَّهُ مَهْمَا بَذَلَ مِنَ الْأَسْبَابِ فَلَنْ يُحَصِّلَ شَيْئًا؛ فَتَحْقِيقُ الْمُرَادِ وَالْقَصْدِ لِوَجْهِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي نَيْلِ هَذَا الْعِلْمِ هُوَ مِنْ أَهَمِّ مَا يُعْنَى بِهِ الطَّالِبُ.

وَلِهَذَا؛ كَانَ الْعُلَمَاءُ يَسْتَحِبُّونَ افْتِتَاحَ كُتُبِ الْحَدِيثِ وَنَحْوِهَا بِحَدِيثِ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»؛ تَنْبِيهًا لِلطَّالِبِ عَلَى ضَرُورَةِ تَصْحِيحِ الْقَصْدِ.

وَتَصْحِيحُ الْقَصْدِ هَذَا هُوَ اللَّبِنَةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي طَرِيقِ طَلَبِ الْعِلْمِ؛ فَمَنْ لَمْ يَصْطَحِبْهُ فَإِنَّهُ سُرْعَانَ مَا يَنْقَطِعُ بِهِ الْعِلْمُ، وَسُرْعَانَ مَا يَنْقَطِعُ بِهِ الطَّرِيقُ، أَوْ قَدْ يَمْكُرُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِ؛ فَيَجْعَلَ مِنْهُ عَالِمَ ضَلَالٍ وَعَالِمَ سُوءٍ، يَدْعُو النَّاسَ إِلَى النَّارِ؛ لِيَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُسَعَّرُ بِهَا ـ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ـ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ مُكِرَ بِهِ»، وَمَكْرُ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ هُوَ مَكْرٌ شَدِيدٌ.

فَإِذَا وُجِدَتِ النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ النِّيَّةَ الصَّحِيحَةَ [تُوصِلُ صَاحِبَهَا إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ، بَلْ] إِلَى أَرْفَعِهَا وَأَعْلَاهَا وَأَعَزِّهَا؛ [فَصَاحِبُهَا طَلَبَ الْعِلْمَ] لَا لِيُمَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ؛ وَإِنَّمَا طَلَبَهُ لِوَجْهِ اللَّهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ.

إِذَنْ؛ فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَعَدَّى فِي طَرِيقِ الْعِلْمِ إِلَّا مَا رَسَمَهُ لَهُ مَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ لَهُ فِي هَذَا الطَّلَبِ؛ وَهُوَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَهَذَا أَوَّلُ مَشَاهِدِ الصِّدْقِ فِي سَيْرِ الطَّالِبِ عَلَى طَرِيقِ طَلَبِ الْعِلْمِ.

وَلِهَذَا؛ كَانَ السَّلَفُ يُعَالِجُونَ أَمْرَ النِّيَّةِ وَيُصَحِّحُونَهُ، وَلَمَّا كَانَ السَّلَفُ عَلَى نِيَّةٍ صَالِحَةٍ فِي الْعِلْمِ؛ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ حَظًّا مِنَ الْعَمَلِ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ:

هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلْ *** فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلْ

فَكَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ حِرْصًا عَلَى الْعَمَلِ وَعَلَى التَّطْبِيقِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُكَاثِرُوا الْعُلَمَاءَ بِالْمَسَائِلِ، وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يَصْرِفُوا وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ فِي عِلْمِهِمْ، وَمَعْرِفَتِهِمْ، وَبَلَاغَةِ أَلْسِنَتِهِمْ؛ وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَنْجُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَنْ يَفُوزُوا بِجَنَّتِهِ، وَأَنْ يَتَحَصَّلُوا عَلَى رِضَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.

فَمِنْ هُنَا؛ كَانَ التَّوْفِيقُ حَلِيفَهُمْ، وَكَانَ التَّأْيِيدُ مُصَاحِبًا لَهُمْ.

وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيمَنْ أَخْلَصَ مَعَ اللَّهِ - تَعَالَى - فِي سَائِرِ الْعَمَلِ؛ فَطَالِبُ الْعِلْمِ إِذَا لَمْ يُرِدْ وَجْهَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ؛ فَإِنَّهُ يُبْتَلَى بِانْقِطَاعِ السَّيْرِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، أَوْ فِي الطَّمْسِ عَلَى بَصِيرَتِهِ؛ فَيَقْرَأُ وَيَقْرَأُ وَيَتَعَلَّمُ وَيَتَعَلَّمُ وَلَكِنْ لَا يَسْتَفِيدُ شَيْئًا، أَوْ قَدْ يَصِلُ بِهِ الْحَدُّ إِلَى أَنْ يُوقِعَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي شَرِّ الْأَعْمَالِ؛ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَيْهِ - تَعَالَى - بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبِغَيْرِ هُدًى؛ فَعَلَيْنَا إِذَا أَرَدْنَا الانْطِلَاقَ فِي الْعِلْمِ عَلَى وَجْهٍ صَحِيحٍ أَنْ نَعْتَنِيَ بِهَذَا الْأَمْرِ.

ثُمَّ - أَيْضًا - لَعَلَّ مِنْ أَسْبَابِ التَّقْصِيرِ فِي نَيْلِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ مَعَ تَوَفُّرِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ: ضَعْفُ الْهِمَّةِ، وَالتَّكَالُبُ عَلَى الدُّنْيَا.

الْهِمَّةُ الْعَالِيَةُ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَ أَسْلَافِنَا، عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، عِنْدَ الْأَوْزَاعِيِّ، عِنْدَ الثَّوْرِيِّ، عِنْدَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَابْنِ قُدَامَةَ، كَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ الْقَيِّمِ، لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ الْيَوْمَ إِلَّا عِنْدَ قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ - نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُبَارِكَ فِيهَا -.

الْهِمَّةُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ هِيَ مِنَ الْأَسَاسِيَّاتِ بَعْدَ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَالنَّبِيُّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَلَّمَ الْمُسْلِمَ عُلُوَّ الْهِمَّةِ فِي أَحَادِيث كَثِيرَةٍ؛ مِنْ أَهَمِّهَا: أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: «إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ فَلْيَسْأَلْهُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ».

وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى عُلُوِّ الْهِمَّةِ، وَعَلَى أَنَّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ لَا يَرْضَى مِنْهُ بِالْيَسِيرِ، وَأَنْ يَبْذُلَ جُهْدَهُ فِي أَنْ يَصِلَ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِهِ وَأَعْلَى دَرَجَاتِهِ. وَلِهَذَا؛ إِذَا دَعَا أَحَدُكُمُ اللَّهَ فَلَا يَدْعُوهُ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ» فَحَسْبُ، لَا؛ بَلْ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى»، وَهَذَا السُّؤَالُ سَوْفَ يَصْحَبُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يُهَيِّئُ صَاحِبَهُ لِلُّحُوقِ بِالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى وَبِأَهْلِهِ السَّاكِنِينَ فِيهِ.

فَالْهِمَّةُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ضَعُفَتْ، وَضَعْفُهَا لِأَجْلِ وُجُودِ كَثِيرٍ مِنَ الصَّوَارِفِ؛ فَصَوَارِفُ الدُّنْيَا فِي زُخْرُفِهَا وَجَمَالِهَا وَصُوَرِهَا الْفَتَّانَةِ لَا شَكَّ أَنَّهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَلَكِنْ مَنْ مَقَتَ هَذِهِ الدُّنْيَا فِي ذَاتِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَا تَسْوَى عِنْدَ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا يُعْطِيهَا اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ؛ هَانَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَعَلِمَ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى؛ فَسَعَى إِلَيْهَا، وَاجْتَهَدَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ بِمَا يُوصِلُهُ إِلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَبِمَا يَرْفَعُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِ شَأْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ.

كَذَلِكَ لَعَلَّ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُعِيقُ أَنْ يَصِلَ كَثِيرٌ مِنَ الطَّلَبَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ سَلَفِهِمْ فِي الْعِلْمِ هُوَ: التَّخَبُّطُ فِي طَرِيقِ التَّلَقِّي؛ فَطَرِيقُ التَّلَقِّي مُهِمٌّ فِي نَيْلِ الْعِلْمِ.

وَطَرِيقُ التَّلَقِّي هُوَ الْأَخْذُ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّينَ، لَا عَنْ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ وَالْمُتَشَبِّهِينَ بِالْعُلَمَاءِ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ أَخْطَرِ مَا خَشِيَهُمُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَيْنَا، بَلْ أَخْبَرَ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ أَنَّ «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ» كَمَا رَوَى ذَلِكَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الْجُمَحِيِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ـ.

وَالْأَصَاغِرُ قِيلَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ صِغَارُ الْأَسْنَانِ الَّذِين لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ.

وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ صَوَابٌ، وَرَجَّحَ ابْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ الْمُرَادَ صِغَارُ الْأَسْنَانِ الَّذِينَ لَمْ يَتَهَيَّؤُوا بِالْعِلْمِ، وَلَمْ تَرْسَخْ قَدَمُهُمْ فِيهِ، وَهَذَا يُؤَيِّدُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ وَصَفَ الْخَوَارِجَ، وَذَكَرَ مِنْ أَعْظَمِ سِمَاتِهِمْ أَنَّهُمْ «صِغَارُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ»، أَيْ: يَعْتَمِدُونَ عَلَى كَلَامِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وَلَكِنَّهُمْ يَضَعُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؛ فَيَفْتَرُونَ عَلَيْهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

وَمِنْ هُنَا؛ كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعْتَنُونَ بِالرَّأْيِ إِذَا جَاءَ عَنِ الْكَبِيرِ، وَيُقَدِّرُونَهُ قَدْرَهُ.

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الشَّابَّ لَا قَدْرَ لَهُ وَلَا وَزْنَ، وَلَكِنَّ الشَّابَّ إِذَا تَضَلَّعَ بِالْعِلْمِ حَقًّا، وَشَهِدَ لَهُ عُلَمَاءُ زَمَانِهِ بِالْعِلْمِ؛ فَإِنَّ تَقْدِيمَهُ جَيِّدٌ وَصَحِيحٌ. وَلِهَذَا؛ قَدَّمَ الصَّحَابَةُ ابْنَ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ـ وَكَانَ صَغِيرَ السِّنِّ، وَلَكِنْ زَكَّاهُ مَنْ؟ زَكَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَجَمَاعَاتٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، كَيْفَ لَا وَقَدْ مَدَحَهُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِأَنَّهُ حَبْرُ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانُ الْقُرْآنِ، بَلْ وَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِأَنْ يُفَقِّهَهُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَأَنْ يُعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ؟!

فَإِذَنْ؛ تَحْذِيرُ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنَ التَّلَقِّي عَمَّنْ لَيْسَ أَهْلًا لِحَمْلِ الْعِلْمِ وَنَقْلِهِ إِلَى الْمُتَعَلِّمِ بِالصِّفَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي أَرَادَهَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبُ هَذَا الْعِلْمِ ـ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ [الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَنْتَبِهَ لَهَا] الْأُمَّةُ.

وَمِنْ هُنَا؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ عُلَمَاؤُهُمُ الْأَكَابِرُ؛ فَإِذَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ صِغَارِهِمْ وَعَنْ شِرَارِهِمْ هَلَكُوا».

هَذَا فِي جَانِبِ التَّلَقِّي عَنِ الْعُلَمَاءِ، وَمِنْهُ يُسْتَفَادُ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يُؤْخَذُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْعُلَمَاءِ، وَأَنَّ مَنْ أَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ طَرِيقِ الْكُتُبِ فَحَسْبُ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْأَشْرِطَةِ فَحَسْبُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُصِيبٍ؛ لِأَنَّ سُنَّةَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الَّذِي وَضَعَ هَذَا الْعِلْمَ أَنَّهُ لَا يُتَلَقَّى إِلَّا بِالْمُشَافَهَةِ وَبِالْجُثِيِّ عَلَى الرُّكَبِ بَيْنَ أَيْدِي الْعُلَمَاءِ.

وَلِهَذَا؛ جَاءَ جِبْرِيلُ مُعَلِّمًا الصَّحَابَةَ، فَجَثَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ، وَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، ثُمَّ سَأَلَهُ؛ فَاسْتَفَادَ الْعُلَمَاءُ مِنْ ذَلِكَ طَرِيقَةَ التَّلَقِّي.

وَلِهَذَا؛ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ جَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ وَهُوَ فِي حَلْقَةِ الْعِلْمِ، فَأَحَدُهُمَا آوَى، وَأَحَدُهُمَا جَلَسَ خَلْفَ الْحَلْقَةِ، وَآخَرُ انْصَرَفَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَآوَى؛ فَآوَى اللَّهُ إِلَيْهِ» بَحَثَ عَنْ فُرْجَةٍ وَدَخَلَ فِي الْحَلْقَةِ، «وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا؛ فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ. وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ؛ فَأَعْرَضَ اللَّهُ ـ تَعَالَى ـ عَنْهُ»، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ التَّلَقِّي: أَنْ تَكُونَ مُشَافَهَةً عَنِ الْعُلَمَاءِ، فَلَا بُدَّ مِنْهَا.

وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.

تاريخ نشر النسخة الأولى: ٢٠/ ١/ ١٤٢٩هـ الموافق: ٢٨/ ١/ ٢٠٠٨م.

تاريخ نشر النسخة المعدلة هذه: ٢٠/ ٨/ ١٤٢٩هـ الموافق: ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٨م.